علماً قائماً بذاته، وكان المعهد يقوم على يد علماء أوروبيين في غالبيتهم. إنَّ نظرة القائمين على مدرسة شيكاغو قائمة على رأي مفاده أنَّ بحوث الاتصال يجب أنّ تؤدّي الوظائف التالية:

اعتبار المدينة كمختبرٍ اجتماعيّ،[٥] تعمل على صهر المهاجرين الذين جاؤوا من مختلف بقاع الأرض تحت مظلة الهويّة الأمريكيّة التي تُعَدُّ وقتذاك في طور التشكّل؛

تكريس نظريّة المنفعة، وسيطرة شركات متعدّدة الجنسيّة Multinational corporation، فبما أنَّ سكان الولايات المتحدة الأمريكيّة، من الناحيّة الاجتماعيّة، هم عبارة عن مهاجرين، فلا بدّ من إيجاد شيء يجمعهم، وهو ما تحقق في نظريّة المنفعة التي تخدم مصالح الشركات متعدّدة الجنسيّة؛

التأثير في الانتخابات، وهذا ما تحقق في انتخاب فرانكلين روزفلت.

من خلال استعراض الوظائف الثلاث الرئيسة لمدرسة شيكاغو، يتضح لنا أنَّ علم الاتصال يؤدّي وظائف عدّة، ولكنّها وظائف تخدم بالدرجة الأولى الشركات متعدّدة الجنسيّة من جهة، وخدمة رجال السياسة من جهة أخرى، وهنا ندخل إلى إشكاليّة كبرى وهي العلاقة بين رأس المال والسلطة، ولا نعتقد أنَّ هذا هو المقام المناسب لمناقشة هذه الإشكاليّة.

وفي سياق ذي صلة، يقول زبيغنيو بريجينسكي[٦] Zbigniew Brzezinski (١٩٢٨ ـ ٢٠١٧): «بعد عصر المدفعيّة، وبعد عصر التجارة والمال، باتت تقنيات الاتصال وشبكاته تمثل الجيل الثالث من هيمنتنا على العالم».[٧]

هنا لا بدّ من الإشارة إلى مفارقة مهمّة من مفارقات المدرسة الأمريكيّة، وهي أنَّ هناك تيّاراً كان يؤمن بأنّ المتلقي ليس بهذه السذاجة التي يُنظر إليها، ودعا إلى الاهتمام بالثقافة، ولكنَّ المسيطرين على هذه المدرسة عملوا على إقصاء هذا التيّار التنويريّ، لسبب وحيد: لأنَّهم لم يضعوا اعتباراً للشرط الأساسي للمدرسة، وهذا الشرط ينصّ على أنَّ الاتصال-الإعلام وظيفة تخدم أوّلاً رأس المال، وثانياً السلطة السياسيّة.

***

أسّس الماركسيّون الألمان في عشرينيّات القرن الماضي بقيادة الفيلسوف ماكس هوركهايمر «معهد البحث الاجتماعيّ» التابع لجامعة فرانكفورت، خلال حكم جمهوريّة فايمر، ويعتبر هذا المعهد أوّل مؤسّسة ألمانيّة بحثيَّة تعلن صراحةً توجّهها الماركسي، ولكن مع وصول هتلر إلى السلطة عمل على إقالة هوركهايمر ومعه مجموع الأعضاء المؤسّسين من أصول يهوديّة، ورغم النفي ظلّ المعهد موجوداً، إلّا أنَّه بُعيْد الحرب العالميّة الثانية عاد

طرحت مدرسة فرانكفورت «النقديّة» مسألة الصناعات الثقافيّة؛ أي هل يمكن تحويل الثقافة إلى صناعة؟

٥ـ أرمان وميشال ماتلار، تاريخ نظريّات الاتصال، ص٣٩ وما بعدها.

٦ـ مستشار الأمن القومي لدى الرئيس الأمريكيّ جيمي كارتر بين عامي ١٩٧٧ و١٩٨١

٧ـ انظر: الفضائيّات الإخباريّة العربيّة بين عولمتين، حياة الحويك، منتدى المعارف، ٢٠١٣، بيروت.